الفصل الثاني

الجسد حزين، يا للاسف

- ستيفان مالمي -

في اليوم التالي لزيارة الكسي سافر فيكونت سلفانيا لقضاء أسابيع في قصر صديقى له، حيث يستطيع المدعوون الكثر، أن يسروا عن نفسه الحزن الذي يعقب نوبات مرضه. ولم تلبث مسراته كلها أن تجهمت بمصاحبة امرأة صبية كانت تضاعف أفراحه بمقاسمته إياها. وقد خيل إليه أنها تحبه، ولكنه استبقى حبالها بعض التحفظ.

كان يعرف أنها وفية طاهرة. وكانت تنتظر بفارغ صبر قدوم زوجها. ثم لم يكن واثقا من حبه الأكيد لها. وكان يشعر بصورة مهمة بالجريمة التي يرتكبها إن جرها إلى الإثم في أي برهة اتخذت علاقتها شكلا غير طبيعي؟

لم يعد يذكر شيئا من هذا، أما الآن، وكأن ذلك نتيجة الاتفاق ضمني لم يعد يذكر عهده، فهو يقبل معصمها و يلف يده حول عنقها. وكانت تبدو سعيدة لدرجة انه تجاوز هذا الحد في احدى الأمسيات. بدأ يعانقها، ثم داعبها طويلا، وقبلها من جديد في عينيها وخديها وشفتيها وعنقها، وفي أطراف انفها.

وكان في الصبية مختلج لهذه المداعبات، وتتألق نظراتها في أعمق أعماقها، كما تلتمع قطرات الندى في وهج الشمس.

وغدت مداعبات بلداسار، مع الزمن، على أكثر من الجرأة. وتأملها مليا مرة، فوقف مشدوها لشحوبها ولهذا اليأس اللانهائي يعبر عنه جبينها الميت وعيناها التعبتان الحزينتان تبكيان في نظرات اشد حزنا من الدموع، كالعذاب الذي نقاسيه خلال عملية صلب أو فقد عزيز معبود. وتأملها لحظة وجهد عظيم، رفعت نحوه عينها تستجديان الرحمة. وفي الوقت ذاته توجه إليه فمها النهم بحركة تقلص لاشعورية يلتمس القبل. ولفتها من جديد تلك اللذة المحمومة المفعمة بغبير قبلاتهما وذكرى مداعباتها فاندفعا إلى بعضهما وأغمضا عينيهما، هذه العيون القاسية تكشف لها عن شقاء نفسيهما. ولم يكونا ليريدان رؤية هذا الشقاء، وهو، على الأخص، أغمض عينيه بجملة قواه، كالجلاد ينتابه الندم فيحس برجفة في ذراعه عند ضرب الضحية.

وكان قد جاء الليل وهي هنا، في غرفته، وعيونها تائهة، مبهمة بلا دموع. وقبلت يده بحزن اليم وراحت دون أن تقول له كلمة.

أما هو فلم يستطع أن ينام. وإذ بدا له أن مخلد للسكون لحظة أخذ يرتجف لشعوره بان عيني الضحية اللطيفة متجهتان إليه راجيتين يائستين. وتمثلها لخاطره لحظة، كما يجب أن تكون في هذه البرهة وقد ثقلت عليها الوحدة، وجفا عينيها الكرى فارتدى ثيابه ومشي بلطف إلى غرفتها، ولم يكن ليجسر على القيام بحركة خوفا من إيقاظها إن كانت نائمة، ولم تسعفه الجرأة ليعود إلى غرفته حيث تضغط عليه بإثقالها السماء والأرض وروحه جميعا.

وظل هنا على عتبة غرفتها وهو يعتقد في كل لحظة انه لن يستطيع أن يضبط نفسه فترة أخرى، وانه سيدخل، ثم تخيفه هذه الفكرة، من أنه سيقطع بذلك سلسلة نومها وأنفاسها الحلوة الساجية وانه سيسلمها بقسوة إلى اليأس والندم وقد هادنتهما بلحظة راحة، فظل هنا على العتبة، جالسا مرة، وجاثيا على ركبتيه أخرى، ونائما حينا. ورجع إلى غرفته في الصباح واجفا مطمئنا. واستسلم للرقاد ثم استقطب مرحا سعيدا.

وافتن بلداسار وصديقته في تطمين ضميريهما. وتعودا على الندم وقد بدأت تخف وطأته شيئا فشيئا، وعلى الذات التي تضحي، مع الزمن، اقل احتداما وقوة.